لا للخاصة ولا للكافة ...

بقلم عبدالله عبد الجبار

•

لمن يكتب الأديب ؟ أيكتب للعامة أم للخاصة ؟ هذا هو السؤال الذي كان موضوعاً لتلك المناظرة التي استغرقت ثلاث ساعات بين عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين وبين الاستاذ رئيف الخوري .

لقد عشت في دوامة وأنا أصيخ للمتناظرين القديرين ، دوامة عنيفة تشبه احساس الصاعد الى جبل الأرز الخالد بسرعة تسعين كيلومتراً في الساعة بين مشاهد الجنات الحالمة والربى الغناء المحفوفة بالطرق الضيقة والفجاج الملتوية ومناظر المهاوي السحيقة التي تفزع القلب وتجمد الاحساس .

لقد تصورت المتناقشين يتباريان في تلك المسالك الخطرة والدروب الوعرة ، ويتنافسان أيهما يأخذ على مناظره الطريق ، طريق الجادة ويترك خصمه على شفا الهاوية لقد كانا بارعين حقاً فلم يهو أحدهما ، ولكن ما ان وصلا الى غابة الارز بعد طول الأين واللهاث حتى اشار كل منهما الى شجرة واحدة قائلا : هذه هي شجرة لامرتين ! اذن فكل ما شجر بينهما من خلاف ، كان الى حد كبير مصطنعاً .

وأنا الآن أمسك بالقلم محاولاً أن انفض عن رأسي عقابيل تلك الدوامة بعد ان رأيت المتناقشين الفاضلين متفقين كالمختلفين و مختلفين كالمتفقين .

لمن يكتب الأديب ؟

تعليقات حول مناظرة الدكتور طه حسين ورئيف خوري

والواقع ان الأديب لا يكتب للعامة ولا يكتب للخاصة، وانما يكتب أولاً وقبل كل شيء لأولئك الذين يتجاوب معهم في الاحساس والشعور ، وبقدر ما يكون تشبع هؤلاء بالروح الفنية ونزوعهم الميول الادبية يكون حرص الاديب على ان يقرأوا أدبه ويستوعبوا فنه ويتصلوا بنتاجه .

واذا كان الاديب واقعياً هادفاً فانه يسره ان يقرأ أدبه الطبقات الكادحة والطبقات المتوسطة ، والعمال والزراع وصغار الموظفين ، لانه حينئذ سيجد نفسه تنداح في نفوسهم وافكاره وعواطفه تتغلغل في افكارهم وعواطفهم ، وكلما اتسعت هذه الفئات بسمة الادب والفهم ازداد حرص الاديب الهادف على مخاطبتها وتجلية شعورها . ولا شيء يذكي قريحة الاديب كالشعور بالتجاوب الصادق بينه وبين من يكتب لهم ويصور حياتهم ، افراحهم واحزانهم ، ملاهيهم ومآسيهم ، ولا شيء يضايق الاديب مثل احساسه بغباء الكثرة الكاثرة من الدهماء . اولئك الذين لا يفهمون كلامه أو لا يفهمونه على وجهه ، اولئك الذين لا يترجون الاشارة والرمز وقد اضطر اليها - الى تعبير واضح صريح يهز كيانهم ويؤثر في اعماقهم ابلغ تأثير .

واذا كان الأديب غزلياً مترفا ، فان شعوره بالغبطة والابتهاج لا يتم الا اذا قرأ شعره او قصصه اولئك الاغنياء المنعمون من ذوي الذوق الفني المترف الذين يتفقون معه في المنزع والمشرب والاحساس بحياة الصالونات ، وحياة اللهو والقصف والمجون .

واذا أوتي هؤلاء حظاً من الثقافة والذوق الادبي فان حرص الشاعر الغزلي على ان يقرأوا أدبه يتضاعف ، لانهم اقدر الناس على ادراك براعته في رسم تلك الحياة الفنية المترفة وتصوير اجوائها وملابساتها وملامسها الناعمة وطيوبها الفاغمة وبراعمها الحريرية .

ومهما يكن من شيء فان الباعث الاساسي الذي يدفع الاديب للانتاج هو هذه المشاركة العاطفية والوجدانية ، هو ذلك الاحساس المشترك سواء أكان احساساً بالغنى او بالفقر أو كان احساساً بالكدح او بحياة الفراغ والجدة وسواء كان احساساً بالذل والعبودية والاضطهاد او احساساً بالعز والنشاط والاستعلاء . وكلما احيط ذلك الاحساس بالاطار الادبي من جانب القراء المستهلكين كانوا اكثر ايثاراً من جانب المؤلفين المنتجين ! وهذا التجاوب اذن هو الذي يعقد الصلة الروحية بين الاديب والقراء .

بقيت هناك زاوية هامة لم يتعرض لهـا الاستاذ رئيف الخوري ولا الدكتور طه حسين وهي ان الاديب يكتب لاعدائه ، كما يكتب لاصدقائه اياً كانت لون هذه العداوة ، شخصية او ادبية ، سياسية او دينية ، حزبية او طائفية ، ولو سبرنا نفسية جرير وهو يهجو الفرزدق أو الفرزدق وهو يهجو جريراً ، لألفينا كلا منهما حريصا اشد الحرص على ان يصل هجاؤه لقرنه وان يهتز له قلبه ، وان يزلزل كيانه المنوي زلزالاً عنيفاً مدمراً ... ويخيل الي ان احدهما في لحظة من لحظات الحنق الاسود لو خير بين ان يقرأ الناس جميعاً شعره ما عدا خصمه ، وبين ان يقرأه خصمه وحده دون بقية الناس لاختار الحالة الثانية !

وحينما تأزمت الامور بين المتنبي وكافور ، وآذنت القطيعة بينهما بالشر المستطير اخذ المتنبي يعد العدة للرحيل وهو مطوي الضلوع على حنق مدمر ، حتى اذا كان يوم عرفه من سنة ٣٥٠ هـ وقبل ان يغادر مصر بيوم واحد اصدر منشوراً سياسياً ضد الامير كافور ، وهذا المنشور يتمثل في داليته المشهورة التي مطلعها :

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد

واني لأتصور المتنبي وهو يفر من وجه كافور كيف كان يتنازعه عاملان : عامل الخوف من ان يقع في قبضة الاسود الخصي - على حد تعبيره - وعامل التشفي والانتقام حين يتمثل كافوراً وقد وقعت في يده تلك القصيدة ، كيف كان يستشيط غضباً ويتميز غيظاً وتتدلى مشافره أسى وحنقاً فيشعر بالسعادة الغامرة والارتياح النفسي العميق : ليقرأ كافور - اولا وقبل كل شيء تلك القصيدة ولا عليه بعد ذلك أيقرأها الناس أم لا يقرأونها ! هذا هو شعوره في ذلك الموقف !

ولو صح ما قيل من ان الورقة التي تضمنت تلك القصيدة حين وصلت ليد كافور أمر باحراقها ولم يقف على ما فيها ، وتصورنا ان المتنبي علم بهذا التصرف ، لعلمنا اية صاعقة نزلت على قلب المتنبي وهدت كيانه !

فالاديب اذن يكتب لعدوه كما يكتب لصديقه ، وماذا نسمي العدو في هذين المثلين - وهو فرد - أنسميه خاصة أم نسميه عامة لست أدري ؟!

وما اكثر القصص الواقعية الحديثة والقصائد المتحررة الواعية التي تحفل بها مجلة حرة كمجلة «الآداب» ، التي تصور مآسي الشعوب وحياة البؤس والشقاء ، صدقوني اذا قلت لكم ان منشىء تلك القصائد والقصص لا يسعدهم شيء قدر ما يسعدهم ان يقرأها الطغاة

والمستبدون والمستعمرون والمستغلون ، لانها السلاح الذي ينفذون به في صميمهم ، ولأن هؤلاء الأدباء يريدون – عن وعي وعن غير وعي – أن يعكروا صفو هذه الطبقة الجشعة المستبدة ، ويحيلوا جناتهم النفسية جحيما اليا وعذابا مقيما .

فالأديب الواقعي أذن لا يكتب للكافة وحدها ولا يغترف من واقع الجماهير ليرد اليهم وحسب وانما يكتب لهم، ويكتب لاعدائهم ، وربما كان حرصه على تنغيص حياة هؤلاء الاعداء ووخز ضميرهم واثارة احساسهم بفقدانهم الشعور الانساني ، لا يقل عن حرصه على رفع مستوى الجماهير وتحريكهم لرد الحقوق السليبة ونيل الحرية المفقودة ... ولا يكون ذلك الا بمخاطبتهم والكتابة اليهم ... وثمت سبب آخر يدعو لتوجيه الخطاب لهذه الفئات وهو توهينها واضعاف روحها المعنويـة وتحطيم تلك الاصنام البشرية التي تعبد من دون الله .

والملاحظ ان شكسبير وموليير من المؤلفين الذين تمثل رواياتهم باستمرار في بلدان الديموقراطيات الشعبية والاتحاد السوفياتي ... كما تمثل في غيرها من البلاد . ومعنى هذا ان شكسبير وموليير يخاطبان اصحاب اليمين واصحاب الشمال على السواء ، فهما اذن لم يكتبا لفئة معينة من الناس لا لخاصة ولا عامة وانما كتبا للناس جميعا ، والسر في هـذا انهما اكتشفا اكسير الخلود والبقاء وهو الروح الانساني الخالد ... مـع توافر العناصر الفنية الاخرى بطبيعة الحال ...

هذه صورة مقتضبة لواقع الادباء النفسي حين يكتبون أدبهـم النفسي ويذيعونه على الناس ، وهي الصورة التي يوحي بها عنوان المناظرة « لمن يكتب الاديب ألخاصة أم للكافة ؟ وكم كان بودي لو ان احد المتناظرين الفاضلين قد جلاها لنا على نحو اكثر وضوحاً واشراقاً قبل ان يتخذ الغائية منارا له . ويخيل الي ان الاستاذ رئيف خوري كان يتحدث عن هـذا العنوان : لمن يجب أن يكتب الاديب ؟

والواقع ان الاديب حر لا يعرف القيد ، وان الناقد الادبي لا يسعه ان يفرض على الادباء التزام مذهب بعينه، ايا كان هـذا المذهب ، فالبيئة والتربية والثقافة والمزاج الشخصي وروح التفاؤل أو التشاؤم ، والانطوائية أو الانبساطية وغيرها من العوامل هي التي تعين خط السير للاديب فتجعله كلاسيكياً أو رومانسيا ، واقعياً أو رمزيا. ويلوح لي ان جوهر الخطأ في هذه القضية يتبلور في الخلط بين المذاهب الاجتماعية وبين المذاهب الادبية ، فقد يعتنق اديب مـا مذهب الاشتراكيـة ولكنه لا يستطيع ان يكون أديباً اشتراكياً ، ذلك لان مزاجه الفني قد تجوهر في الشعر الغنائي مثلاً... واذا ما حاول أن يقصر نفسه على ان ينتج ادبا واقعياً ادركه الفشل أو تمخض عن غثاء وصور شوهاء لا غناء فيها ...

وأعرف اديباً شاعراً درس مذهبه الاجتماعي دراسة دقيقة شاملة وسجل آراءه في كتب ومقالات . وطالما تاقت نفسه الى ان يصور أحاسيسه عن مذهبه شعراً . ولكنه ما أن يهم بذلك حتى يخامره احساس غريب واحد وهو أنه يتصور نفسه في متاهات مجهولة تفضي به الى شاطىء مجهول فينظم قصائده دائرة حول هذا المحور الغريب !!

وقد تكون اديباً واقعياً تؤمن ايماناً جازماً بالواقعية، ولكنك مع ذلك لا تستطيـع أن تنتج الا ادبا رومانسيا حزينا دائراً حول ذاته الحائرة الحزينة وذلك لان طاقتك الفنية قد تحددت في هذا الاطار !

ولست أدري أيهما أجدى عـلى الأديب : ان نترك الأدباء أحراراً ينتجون كما يريدون ويعبرون عن ذواتهم كما يشاءون ، أم أن نقسرهم على التزام مذهب بعينه ونحبسهم في اطارنا الواقعي فينتجون أدبا مسيخا فاترا ؟! فأخشى ما يخشى على الاديب الواقعي هـذه الدعوة القاسرة التي حشدت في زمرة الادباء الواقعيين كثيراً من أدعياء الادب ....

ونحب ان نشير هنا الى مشكلة الحرية في الواقعية وسفور الآراء الاجتماعية والسياسية التي قد تحيل القصة الفنية الى مقال اجتماعي والقصيدة الحديثة الى خطبة منبرية لفقدان عنصري الفن والجماليـة . لامراء في ان انجلز وماركس – ومثلهما لينين وستالين – كانا متحيزين في الفن وان جـدارة الاثر الفني لديهم جميعاً رهينة بما يبثه الفنان من الدعاية لافكار معينة والدفاع عنها بحرارة وشجاعة ... وهذه الروح التحيزية تجافي قضية الحرية في الفن والأدب ، ويتناولها بالنقد والتفنيد كثير من الادباء والنقاد مما لا نود تفصيله في هذا المجال ... ولكن الادباء التقدميين يدافعون عنها ويشرحون مزاياها ، فقد كتب ايليا اهرنبورغ مقالا عنوانه «نعم ان أدبنا متحيز» جاء فيه : « انه من الطبيعي جداً ، ان يحب الكتاب اشياء ويكرهوا أشياء أخر واذا كانوا يتميزون عن معاصريهم ، فانمـا يتميزون بحساسية عواطفهم ، لا بالعواطف الخابية .

«إن «دانتي» قد عاش نفس حياة معاصريه ،فساهم في نضالاتهم السياسية وخصها بكثير من اشعاره ، وهذه الروح التحيزية لم تحل ابداً بينه وبين أن يبدع ، بل على العكس ساعدته على خلق هذه « الكوميديا الالهية » التي لا تزال تحرك احساساتنا ، على الرغم من ان أصداء أحداث القرن الثامن عشر السياسية قد سكنت منذ أمد بعيد . »

ونلاحظ أن التقدمية تدعو الى حرية الفنان . ولكن هـذه الحرية ليست تجريدية وانما هي مقيدة بالواقعي الملموس ١

ومع هذه الواقعية والروح التحيزية فان انجلز يفرق بين التحيز والنزوع، ويرى ان آراء الكاتب كلما كانت مغلقة كانت أدعى لسمو الاثر الفـني وتحقيق أصالته الفنية ...

وقد كتب بصفة خاصة عن النزوع الى الرواية الاشتراكية في نهاية القرن الماضي الى مرغريت هاركنس قائلا : « اني لأبعد ما يكون عن اتهامك بالخطأ لانك لم تكتبي قصة اشتراكية خالصة رواية ذات نزعة Tendengraman كما نسميها نحن الالمان كي تمجد آراء الكاتب الاجتماعية والسياسية .

ليس هذا ما أعني ، اذ كلما كانت آراء الكاتب مقنعة كان ذلك أفضل للاثر الفني ٢

كما وجه اللوم الى مينا كوتسكي لان الشخصية عندارنولد «أحد أبطال روايتها . ج . ن » قد ذابت في المبدأ بصورة كلية ...

وتأتي بعد هذا مشكلة الجمالية والتعبير .

وسارتر في كتابه «ما هو الأدب» ينبذ الادب الشعري والفني والميتافيزقي ويدعو الى نثر يهدف الى عمل اخلاقي واجتماعي وسياسي بـين البشر ، غايته بكل بساطة الاتصال بالآخرين ..

وهو مع هذا الالتزام لا ينكر الجمالية والفن وان كان يحلهما المحل الثاني : « فان اللذة الجمـالية في النثر ليست صافية الا اذا جاءت

البقية على الصفحة ٧٧ –

١ ماركس وانجلز «الادب والفن» وعلاقة الفن بالواقع ص ١٥ ، ١٦

٢ في علم الجمال هنري لوفافر ص ٤٧ – ٤٨

لمن يكتب الاديب ؟

تتمة المنشور على الصفحة ٤٨

بالاضافة ... ولنكتب اولا بنية ان نقول شيئاً للاحيـاء ولا يضيرنا الا يبقى لاحفادنا الذين لن يحسوا بقيمة الحوادث الراهنة الا الاعجـاب باسلوبنا ، ولكن لا يحسن بنا ان نتوخى الاسلوب لذاته ، ان المسؤولية والصدق يأتيان اولا ، والاسلوب والجمالية في المحل الثاني[١]»

وانا أوجه هذا الكلام للذين يحسبون الواقعية ابتذالاً في التعبير، واحب ان الفت النظر بصفة خاصة الى قول سارتر « ولا يضيرنا الا يبقى لاحفادنا الا الاعجاب باسلوبنا » فهو اذن مؤمن بروعة اسلوبه وخلوده وان كان قد وضعه في المرتبة التالية للمسؤولية والصدق .

وقصارى القول ان الواقعية في الادب العربي الحديث يتهددها عاملان خطران هما :

١ — ملتزمون غير ادباء

٢ — وادباء غير ملتزمين

فقد تطفل على مائدتها هذان الصنفان من الناس ، فأما اولهما فقد آمن ايماناً راسخاً بالواقعية وظن ان حرارة هذا الايمان تبيح له ان يدخـل حرم الفن المقدس ففشيه دون ان تكون له الكفاية الادبية والادوات الفنية اللازمة لاجادة التصوير والتعبير فكان نتاجه سبباً في هبوط المستوى الفني للادب الواقعي .

واما ثانيهما فادباء كانوا يعيشون في ابراجهم العاجية اوقضوا حيـاتهم في الترف والنعيم والمجون ، ولا يحسّون بمبدأ الالـتزام عقيدة تسري في دمائهم ، ومع ذلك أحبوا ان يكون لهم نصيب في هذا اللون الجديـد فجاء أدبهم كألعاب البهلوان البارع ولكنه خال من الحرارة والصدق والايمـان !

يا دعاة الادب للحياة — انقذوا الادب من هذه الطفيليات يستقم لكم بناء الأدب الجديد. وبعد ، فما هو قصارى القول في هذ الموضوع ؟

مجمـل الرأي ان الاديب يكتب للفرد كما يكتب للجماعة ، ويكتب للاصدقاء كما يكتب للاعـداء، وان الاديب الواقعي لا يكتب للعامة ولا للخاصة وحدها وانما يكتب لهم جميعاً وان عباقرة الادب كشكسبير يكتبون للناس جميعاً .

هذا هو رأي الناقد الادبي على اساس الواقع النفسي للادباء لا عـلى أساس الاتجاه الفنائي . أما رأي الشخص الذي يعتنق مذهبا خاصا في الحياة فيتبلور في هذا الاحساس المركز الذي صوره الشاعر العظيم بقوله :

« ان لم احترق أنا ، وان لم تحترق انت ، وان لم نحترق كلنا ، فكيف يمكن لهذه الظلمات ، ان تصبح ضياء ؟ »

وعلى هذا فالاديب الواقعي — بوصفة انساناً يدين بمبدأ خاص في الحياة — لا بوصفه ناقداً ادبياً — جدير ان يدعو زملاءه الادباء الواقعيين لأن يحملوا الرسالة ويؤدوا الامانة وان يذيبوا مهجهم على القرطاس ويصوروا احساس الجماهير ويوقظوا شعورهم وليرفعوا صوت الشعب الذي هـو صوت الله ! .

جدير به ان يؤنبهم وينقدهم اذا ما تقاعسوا عن النضال ، كما فعل سارتر اذ اعتبر فلوبير وغونكور مسئولين عن حركة القمع التي تبعت حكومة الكومون Commune لانهما لم يكتبا سطراً للحيلولة دونها .

جدير به بعد ذلك ان يضحي ويحترق وان يهيب باخوانه وزملائـه ان يضحوا ويحترقوا حتى تظل جذوة الكفاح متقدة ابداً مشتعلة دائماً ، فشعل الحرية منذ كانت الحرية لا يضيئه الا دم الشهداء !

القاهرة — **عبد الله عبد الجبار**

١ «سارتر والوجودية » ترجمه سهيل ادريس ص ١٥٠ ، ١٥٣

مفاهيم في الادب العربي الحديث

بقلم عبدالله يونس

عندما وقف الاستاذ رئيف خوري والدكتور طه حسين يتناظران ، لم يكونا في الحقيقة مجرد الاستاذ رئيف والدكتور طه ، ولكن كان يبرز من خلال ذلك — وإن لم يكن بصورة جليـة قوية — صراع ايديولوجي يتناول المفاهيم الجذرية لأدب فترتين هامتين من حياة المجتمع العربي الحديث .

وتمتد اولى هاتين الفترتين منذ عصر الانحطاط حتى الحرب العالمية الثانية، بينا تمتد الثانية فيما بعد الحرب . وهاتان الفترتان كانتا في الحقيقة قصـيرتين بالنسبة للعمل التطوري الحاسم ، الذي يمتد على فترة طويلة يتم فيها عمـله ببطء . ولكن المجتمع العربي نفسه لم يكن يتبع في سيره الخط الطبيعي للتطور ...

لقد كان يتقلب بسرعة ، خلال احداث ومشاكل تتكاثر ويلد بعضهـا بعضاً . كما كانت التأثيرات المختلفة التي خضع لها ، تتغير باستمرار وتتفاعـل بسرعة ، نتيجة للاضطرابات التي كان ولا يزال يخضع لها ، من سياسيـة واقتصادية واجتماعية .

ومنذ بداية القرن العشرين ، كان الجميع يشعرون بان الانسان العربي على باب حياة جديدة ، تختلف كل الأختلاف عن تلك التي عاشها خلال القرون الاربعة الماضية .

وكان على الادب في ذلك الوقت ان يقوم بمهمته خلال هذه الفـترة ؛ تلك المهمة التي ألهمه إياها طبيعة الواقع في تلك الفترة من جهة ، ومـاهية الصفة التي اكتسبها الادب نتيجة فترة الانحطاط من جهة اخرى . ولذلك انحصرت مهمة الادباء عند ذلك في رفع الادب كماهية ادبية ، وتركيز قيمة الثقافة كثقافة ، لأن طبيعة المفهوم الحي الذي كان يسيطر على المجتمع ، ويعطي الادب صفته المميزة ، لم تكن لتسمح لهذا الادب ان يقوم بدور ايجابي فعال .

والانسان العربي نفسه في تلك الفترة ، كان همه الاول هو الارتفاع الى نقطة يتركز فيها ، ليبدأ حياته من جديد .

فهمة الانسان والادب في تلك الفترة ، هي الوصول الى وضع ملائم للانطلاق النضالي الحقيقي . اذن فالايديولوجية التي كانت تسيطر في تلك الفترة هي ايديولوجية سلبية بحتة .

اما في تلك الفترة الثانية ؛ فكان ان اخذ — في مطلعها — الانسان العربي يتلمس نفسه ، ويزداد شعوره بكيـانه ، وذلك كان نتيجة تلك

الفترة من النضال السلبي التي عاشها . وبدا يحس – وإن لم يكن قد بلغ تماماً تلك النقطة التي يعتمدها في انطلاقه – بانه قريب جداً من هذه النقطة .

ومن هنا بدأت فترة جديدة من النضال ، ولكنها كانت تتميز عن الفترة الاولى بانها تحمل بذوراً ايجابية في داخلها . وبدأ الانسان العربي يبحث عن قيم جديدة . وكان الادب يواكب كل ذلك وكان ان دخل مرحلة اكثر ايجابية من قبل . ويتحول – كالانسان العربي – من فترة البحث عن نقطة ارتكاز ، الى فترة البحث عن قيم جديدة . وكان يخضع خلال ذلك لتطورية الواقع ، وللتأثيرات الخارجية من غربية وسواها ، وذلك نتيجة الاتصال مع الصعيد الخارجي .

ولكن الادب في هذه المرحلة الاخيرة التي نعيشها اليوم، كان عليه ان يواجه الى جانب مواكبة النضال والبحث عن مفاهيم جديدة ملائمة لهذا النضال ، كان عليه ان يناضل ايضاًللتخلص من بقايا تلك الفترة الاولى ، التي اخذ منها ما يعينه على السير ، وكان عليه ان يلفظ بعض هذه البقايا لينطلق ... وهكذا كان الصراع !

وكان ما يسمونه معركة القديم والحديث !

وهكذا ، فان الدكتور طه حسين كان يمثل في مناظرته تلك الفئة الاولى التي ادت دورها في عملية التطوير الادبية ، ولكنها ظلت تفرض نفسها على عملية التطوير هذه ، معتمدة في ذلك على ماضيها الكفاحي في تلك الفترة الماضية .

ومن اجل هذا كان لا بد من انعدام اصالة الوضع التطوري ، ازاء حالة الفرض هذه ، على عملية الادب الجديدة . ولهذا كنا نرى مناظرة الدكتور طه حسين تقف بمجملها على نقطتين : اولاهما هي عدم الاعتراف – ضمنياً – بالوضع التطوري في العملية الادبية ، والثانية هي كلامه عن الادب بصورة عامة لا تتقيد بعصر ما او بانسان ما ! بينما نحن اليوم في اشد الحاجة للربط بين الادب وبين الانسان العربي الحالي الذي يبرز من خلال فترة ذات مقومات جديدة .. ومن هنا ينشأ التعقيد والترابط الحيوي بين الانسان والادب .

فطه حسين – كما يقول في مناظرته – لم يكن يفهم في كل ما كتب – عامة او خاصة، وانما فهم ادباً يكتب وقراء يقرأون فيرضون اويسخطون. ولنقف قليلاً عند هذه النقطة ، فهي تفسر لنا اشياء هامة .

ان الدكتور – كما يقول – لم يفهم عامة او خاصة ! ولكن مجرد عدم الفهم لا يلغي الوضع الحقيقي للادب في تلك الفترة ، وهو انه كان يدور في حلقة من الخاصة الثقافية التي كانت تتفرد به . ثم ان كل ما كان ينتجسه الادب هو مجرد اثارة الرضى او السخط ! وفي هذا مصداق لتلك الفترة السلبية التي كان يعيشها الادب . والا فلننظر .. من من الادباء اليوم يكتب لمجرد إثارة الرضى او السخط !!

لقد اتصل تأثير الادب في هذه الفترة الثانية، بعامل هام هو عامل التفاعل الحيوي النفساني ، والدفع نحو شيء معين . وهذه كانت اهم بذور الايجابية في تلك الفترة الثانية التي نعيشها اليوم .

ثم يتساءل الدكتور عن تلك النظريات الجديدة التي تسيطر على الادب، والتي لا يأبه لها ، لان الادب قد وجد قبل ان توجد هذه النظريات ، ولأن الادباء انفسهم منذ القديم ، لم يفكروا عند انشاء الادب بعامة او خاصة ، او بتوجيه ما او انعدامه ! وبعد ذلك يتساءل .. ما الذي طرأ على الحياة الانسانية وعلى الحياة العقلية بصفة خاصة ؟!

عجباً ، هل يكفي ان نصدف عن هذه النظريات لمجرد ان الادباء من قبل لم يفكروا فيها او يعرفوها ! اننا اذن نشل النشاط الانساني باعدامنا العملية الحية فيه ... عملية التطوير ، انسانياً او عقلياً .

اذن ليس في الامر ما يدعو الى التساؤل عما طرأ على الحياة الانسانية والعقلية ! لقد تطورنا تبعاً للمفهوم الطبيعي للتطور ، في بيئة معينة ، وخلال ظروف وتأثيرات معينة ايضاً . ولكن هل حقاً كما يقول الدكتور بأن السياسة هي من اوجد هذه النظريات ، وذلك لتكون سبيلها للتسلط على الناس ؟!

لا يا سيدي الدكتور ، ان النظرة هنا يجب ان تتسم بعمق اكثر لنستطيع الوصول الى الحقيقة، التي تأخذ هنا دوراً هاماًجداً لانها تمثل جزءاً هاماً من انطلاقتنا الحديثة .

المشكلة كل المشكلة هي ان الانسان العربي الحديث ، بعالمه الحالي وظروفه وتأثيرات بيئته لا يمكنه ان يعيش اعتباطاً، بل لا بد له من موقف معين محدد يقفه من مشاكل عالمه ليسرع بذلك التطورية الجديدة لهذا العالم. فكيف اذن بالانسان – الاديب ؟

ايمكن بعد ذلك اذا اصر الاديب العربي اليوم على اتخاذ موقف معين من مشاكل عصره ، ان نتهمه بان هذا الموقف قد املته عليه السياسة لمجرد التسلط على الناس ؟

ان كل اديب اليوم لا يمكنه الا ان يكون اديب قضية، لان الانسان يا سيدي قد اصبح هنا انسان قضية ايضاً .. قضية كبرى تمتد عميقة بعيدة لتحيط بالجذور الحية لعالمه الجديد هذا

اذا كان ما يقوله الدكتور حقاً ، فان جميع ادباء بلادي اليوم مجرد اجراء ... مجرد ابواق ... تصوروا ... الادباء الذين يلتهبون في حمأة الصراع اليوم مجرد اجراء !!

اجل لقد كان للسياسة نصيب هام في صنع هذه النظريات ، ولكن ليست السياسة كعمل تسلطي للتغرير بالجماهير – كما يراها الدكتور – ولكن السياسة كوضع راهن له آثاره ونتائجه في هذه البقعة من العالم . وعلى هذا الاساس ، نرى ان هذه النظريات قد نتجت عن كل ما يعمل كأثر قوي في ظروف عالمنا العربي من سياسة واقتصاد وحياة اجتماعية ... وغيرها .

اذن فادباء القضايا والنظريات – تلك التي لا يأبه لها الدكتور – هم ابناء واقعهم ، وهم من يتجلى فيهم هذا الواقع ، لانهم يعيشونه بكل ما فيه من الم وقوة ، ولهيب وثورة !

ولكن الدكتور طه حسين يتمشق الحرية (اذن فأذنوا لي ان اكون حراً !) ولكن اية حرية هذه ؟

انه يريد حرية هروبية، حرية ينعزل بها عن مجموعة النظريات والقضايا التي تشكل عالمنا اليوم ، ليهرب الى تلك الفترة الاولى التي لا يمكنه الا ان يعيش فيها .. حيث كانت الحياة .. وكان الادب .. مجرد اعتباط ! يقول الدكتور طه حسين (دعوا هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه الآن ، ودعوا كل الظروف التي تحيط به وتؤثر في الادباء وادبهم آثاراً مختلفة ، وانتقلوا بنا الى عصر بعيد كل البعد عن هذه الظروف التي نحن فيها الآن، واختاروا اي اديب شئتم من ادباء العصور القديمة ، ولنختر مثلاً ادباء التراجيديا عند اليونان: من الذي كان يوجه هؤلاء الادباء ؟) .

ان مجرد المقارنة بين فترتنا هذه وبين فترة اخرى موازية تاريخياً لاستنباط القوانين خطأ واضح ، وذلك لاختلاف الظروف والعوامل المؤثرة في كلا الحالتين ، فكيف اذن يجوزذلك بين فترتين متباينتين تاريخياً.

عدا عن عوامل كثيرة اخرى .

ان الخطوة الاولى لفهم مشكلاتنا الحالية هو ان نعيش هذه المشكلات. اذن فالمشكلة هنا هي اننا لا نستطيع ان نبتعد عن هذا العصر ! وان نلغي عند المقارنة كل الظروف والعوامل التي تكتنفه .. اي شيء يبقى اذن ؟! ان هذه الظروف والعوامل هي ما يميز انسانيتنا كوضع حيوي اليوم. ان منطق التجريد بذاته خطأ، لان ما نكافح من اجله انما هو حل تلك المشكلات التي تنتجها هذه الظروف وتسببها .

ولنواجه الآن ادباء التراجيديا ، ولكن على الا نصحب عالمنا كوضع حي متميز خلال فترة زمنية متميزة ، ولكن نصحبه كصفة حياتية فقط . ولننظر بعدها الى سوفوكل مثلا .

هل حقاً لم يكن سوفوكل موجهاً عندما انشأ (انتيغونا) ؟ انه كما يقول الدكتور : (وجد امامه اسطورة قديمة رائعة تأثر بها اليونان حتى تناقلتها اجيالهم ، ورأى ان النظام في اثينا ، النظام الديني والنظام السياسي يقضي بأن يحتفل في كل عام باله من آلهتهم ...) اذن لقد وجد سوفوكل أسطورة ، ولقد تأثر اليونان بهذه الاسطورة ، والنظام الديني والسياسي يقضي بان يحتفل في كل عام باله من آلهتهم . فاذا انشأ سوفوكل (انتيغونا) بعد ذلك فانما يفعل هذا تبعاً لذلك التأثر والقضاء اللذين يشكلان جزءاً هاماً من الحياة اليونانية .

اذن فسوفوكل كان موجهاً من قبل ناحية من نواحي الحياة اليونانية . ولكن هذا التوجيه لم يكن متميزاً تماماً وواضحاً كما في عصرنا اليوم ، وذلك لاختلاف طبيعة الحياة الاجتماعية ، وبالتالي يمكننا ان نعتبر هذا التوجيه حادثة ضمنية نفسانية اكثر منها حادثة اجتماعية !

ولندع ذلك الى ادباء العرب القدامى . ان الدكتور طه حسين يلخص مشكلتهم في : هل كان الشعراء المادحون هم المغفلون ، ام كان اصحاب السلطة الممدوحون أقرب الى الغفل !! ان صح ان تكون المشكلة هي التغفيل - وهذا خطأ - فكلا الشعراء واصحاب السلطة لم يكونوا مغفلين ، فالشاعر كان يمدح ليجاز ، والخليفة كان يريد هذا المديح كبوق دعاية .. ولكن كل هذا على حساب من ؟ على حساب الشعب ، انه وحده هنا من خسر القضية ! وهؤلاء الشعراء ، هل حقاً كما يقول الدكتور بأنهم كانوا يفكرون في قرائهم وسامعيهم قبل تفكيرهم في الخلفاء والساسة ؟ لنفرض صحة ذلك ، ولكن على اي اساس كان يفكر الشاعر بقرائه وسامعيه ؟ انه يفكر في مقدار ما يمكنه ان يناله من رضاء وتقدير ، اي انه يفكر فيهم ليأخذ منهم ، بينما نرى اديبنا اليوم انما يفكر في القراء ليعطيهم ، ليقدم لهم شيئاً يراه نافعاً في توجيه حياتهم ، ومن هنا تنبع ايجابية الادب الجديد . ويقول الدكتور بأن ليس هناك من عامة ولا خاصة يكتب لها الاديب ، انما هناك اديب يكتب وقراء يقرأون . ولننظر الى هذا الرأي على ضوء الآداب القديمة والمعاصرة ، فمثلا في ادبنا العربي القديم لا يمكن لاحد ان ينكر وجود عامة جماهيرية كانت معزولة عزلاً تاماً عن الثقافة ، بينما كانت هناك خاصة من المثقفين والاثرياء واصحاب السلطة، كانت دائرة الثقافة تحيط بهم وتنغلق عليهم .

واما في ادبنا الحديث ، فليس هناك في الحقيقة كافة او خاصة بالمعنى الصحيح الذي يجعل من كل فئة شخصية محددة متميزة ، وذلك لان التطور الحديث لحياتنا المعاصرة ، قد فرض قضايا مجموع الشعب على المجتمع بحيث اصبحت القضايا المشتركة للجميع والتي تطبع المجتمع بطابعها. وعلى هذا الصعيد المشترك يلتقي الاديب بقرائه .

اذن فالاديب المعاصر لا يكتب لعامة او لخاصة ، ليس لانه لم يوجد هناك قط عامة او خاصة ، ولكن لان الحياة قد حلت ذلك تلقائياً ، واصبح الاديب اليوم يلتفت ليجد نفسه وسط خضم جماعي لا يمكنه حياله - تبعاً لطبيعته - ان يقف مكتوف الايدي ! فماذا عليه ان يعمل في هذه الحالة ما دام ليس هناك من كافة او خاصة ؟ ان دور الاديب المعاصر يحدده ابرع تحديد الاستاذ رئيف خوري - الذي كان يمثل ايديولوجيتنا الجديدة - بقوله : « ان دور الاديب يتجلى في تمييزه في ما يصف ويصور ، ظواهر الحياة التي تنمو من ظواهرها التي تذبل وتضمحل ، لا يقصد من وراء ذلك الى لذة او ترفيه ، او عزاء وانتشاء ، أو مباهاة ببيان ، انما يقصد ان يدخل في وعي الجماهير اي هي الظواهر النامية في الحياة حولهم واي هي الظواهر الصائرة الى ذبول واضمحلال، بغية ان يوجههم الى تغيير الحياة التغيير الذي تحتمله ، والذي يكون في الآن نفسه جمالاً وخيراً لأن الخلق الفني الصحيح انسجام بين الخيال والممكن ، وبين الفني الجميل ، والاخلاقي الخير . »

وعلى هذا الاساس نرى ان المشكلة ليست كما يقول الأستاذ احمد كمال ذكي : (ماذا ولماذا يكتب الاديب) لا .. ان هذه المشكلة تنحل تبعاً المشكلة الأولى (لمن يكتب الأديب ؟) ، وذلك لأن (لمن يكتب الاديب ؟) تحدد حتما نوعية هذا الادب الذي يكتبه ودواعي ذلك ، اي انها تحدد ماذا ولماذا يكتب الأديب .

فمثلا عندما يكتب الأديب لمجموع شعبه الذي لا يزال يرزح تحت قيود الاستعمار ، ماذا يمكنه أن يكتب إلا ان يكون منبعثاً من آلام ذلك الشعب وآماله وحياته ، وهكذا تحدد وجهة الاديب صفة أدبه .

وهناك مشكلة اخرى لا يزال البعض ينظر اليها نظرة خاطئة ، ويجعلون منها شيئين متقابلين : فاما أن يكتب الاديب بمستوى ابداعي رفيع ، وعندها لن يكتب للشعب لان هذا لن يفهمه ، واما ان يكتب للشعب فعليه ان يتنازل - نوعاً ما - عن هذا المستوى !

إنهم يجعلوننا امام احد امرين : اما ان نخسر الادب ، او نخسر الانسان ! ولو كان الأمر كذلك - وهذا محال - لفضلت ان نضحي بالادب لنربح الانسان ، هذا الذي نكافح من اجله !

ولكن يجب ان ينظر الى المشكلة هنا نظرة توافقية وليست تقابلية مطلقاً ، اي ان واجب الأديب الحق أن يعمل ليحفظ مستوى ابداعه ، وليجعل الشعب يفهم عنه ، وهذا عمل شاق ولا شك .. ولكن من هنا تنبع مسؤولية الأديب الكبرى وأهمية دوره في الحياة المعاصرة .

وهناك ايضاً رأي طالما ردده الكثيرون معتقدين أنهم قد حلوا المشكلة وهو ان واجب الاديب الحق أن يرفع هذا الشعب الى مستواه وليس أن ينزل هو الى مستواهم .. ، ولكن بعد هذا كيف يكون ذلك الرفع ؟.. أبداً لا جواب ، بمجرد ان يدفعهم!

الحقيقة ، ان امام الاديب اليوم دوراً يقف على الصعيد الاول في حياتنا ، وانما يستطيع اليوم ان يرفع هذا الشعب عن طريق تجارب تربوية دقيقة واعية تنبعث عن مجموعة مشاكل الشعب كمصدر أول لها . وعندها ... صدقوني .. إنكم ستدهشون لقدرة هذا الشعب على الفهم وعلى الاستيعاب ... ولكن بشرط أن يتنازل الأديب شيئاً ما عن ارتفاعه الشاهق حيث ينعقد الضباب والبخور غيوماً كثيفة طالما جهلها الشعب لكثرة ما أحسها دواراً في رأسه وقلبه - ولأن الإنسان في النهاية لا يمكنه ان يتنازل عن ارضه وشارعه وبيته .. هذه الأشياء التي يتجلى من خلالها مفهومه الانساني .

طرطوس

عبدالله يونس